باب ابن الملكِ وأصحابهِ

قالَ دَبْشَليمُ الملِكُ لبَيْدَبا الفيْلَسُوفِ: قدْ سَمِعْتُ هذا المثَلَ، فإنْ كانَ الرَّجُلُ لا يُصِيبُ الخَيرَ إلاّ بعقْلهِ ورأيهِ وتَثبُّتهِ في الأمُورِ كما يَزْعُمونَ فما بالُ الرَّجُلِ الجَاهلِ يُصيبُ الرِّفْعةَ والخَيرَ، والرَّجُلِ الحكيمِ الْعاقلِ قدْ يُصِيبُ البَلاءَ والضَّرَّ. قال بيْدَبا: كما أنَّ الإنْسانَ لا يُبْصِرُ إلاّ بعَيْنهِ ولا يَسْمَعُ إلاَّ بأُذُنِهِ كذلكَ العمَلَ إنما هُوَ بالحِلْمِ والعَقْلِ والتثَبُّتِ، غيرَ أنَّ القَضاءَ والقدَرَ يَغْلِبُ على ذلكَ. ومثَلُ ذلكَ مثَلُ ابْنِ الملكِ وأصْحابهِ. قال الملكُ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟

قال الفَيْلسُوفُ: زَعَمُوا أنَّ أرْبعةَ نَفَرٍ اصْطَحَبُوا في طَريق واحدَةٍ. . . أحدُهُمْ ابْنُ مَلِكٍ، والثَّانِي ابْنُ تاجرٍ، والثّالِثُ ابْنُ شَرِيفٍ ذُو جَمالٍ، والرَّابعُ ابْنُ أكَّارٍ وكانوا جمِيعاً مُحْتاجين وقدْ أصابَهُمْ ضَرٌّ وَجهْدٌ شديدٌ في مَوْضِعِ غُرْبةٍ لا يَمْلِكُونَ إلاّ ما عليْهِمْ منَ الثِّيابِ فَبينماهُمْ يَمْشُونَ إذ فَكَّرُوا في أمْرِهِمْ، وكانَ كلُّ إنسَانٍ رَاجِعاً إلى طِباعهِ وما كانَ يأتِيهِ منْهُ الخَيرُ. فقالَ ابْنُ الملِكِ: إنَّ أمْرَ الدُّنْيا كلَّهُ بالقَضاءِ والقَدَرِ، الذِي قُدِّرَ على الإنسَانِ يأتِيهِ على كلِّ حالٍ والصَّبْرُ للقَضاءِ والقدَرِ وانْتِظارُهُما أفضَلُ الأمورِ.

وقالَ ابْنُ التاجرِ: العقْلُ أفضَلُ منْ كلِّ شيءٍ. وقال ابْنُ الشّرِيفِ: الجَمالُ أفضَلُ ممَّا ذُكِرَ. ثمَّ قال ابْنُ الأكَّار: ليْسَ في الدُّنْيا أفْضَلُ منَ الاجْتِهادِ في العمَلِ. فلمَّا قَرُبُوا منْ مدِينَةٍ يُقالُ لها مِطْرُونُ جلَسُوا في ناحيَةٍ منْها يَتَشاوَرُونَ. فقالوا لابْنِ الأكَّارِ: انْطلِقْ فاكْتسِبْ لنَا باجْتِهادِكَ طَعاماً

لِيَوْمِنا هذا. فانْطلَقَ ابْنُ الأكّارِ وسألَ عنْ عمَلٍ إذا عَمِلَهُ الإنسَانُ يَكْتسِبُ فيهِ طَعامَ أرْبعَةِ نفَرٍ، فعَرَّفُوهُ أنْ ليْسَ في تلْكَ المدِينَةِ شيءٌ أعَزَّ منَ الحَطَبِ وكانَ الحطَبُ منْها على فَرْسَخٍ(١). فانْطلَقَ ابْنُ الأكّارِ فاحتَطَبَ طِنًّا(٢) منَ الحطَب وأتى بهِ المدينةَ فَباعَهُ بِدِرْهَمٍ واشترى بهِ طَعاماً وكتَبَ على بابِ المدينةِ: عَمَلُ يوْمٍ واحدٍ إذا أجهَدَ فيهِ الرَّجُلُ بدَنَهُ قيمتُهُ دِرْهَمٌ، ثمَّ انْطلَقَ إلى أصْحابهِ بالطَّعامِ فأكلوا.

فلمَّا كانَ من الغَدِ قالوا ينبغي للَّذِي قالَ إنهُ ليْسَ شيءٌ أعَزَّ منَ الجَمالِ أنْ تكونَ نَوْبتُهُ(٣) فانْطلَقَ ابْنُ الشَّريفِ لِيأتيَ المدينةَ ففَكَّرَ في نفْسهِ وقالَ: أنا لسْتُ أُحْسِنُ عمِلاً فَما يُدْخِلُني المدينةَ، ثمَّ استحَى أنْ يَرْجِعَ إلى أصْحابهِ بغيرِ طَعامٍ وهُمَّ بمُفارَقتِهِمْ فانْطلَقَ حتى أسْنَدَ ظهْرَهُ إلى شجَرَةٍ عظيمةٍ فَغَلَبَهُ النّوْمُ فَنامَ، فَمرَّتْ بهِ امْرَأةُ رجُلٍ منْ عُظَماءِ المدينةِ فبَصُرَتْ بهِ فأعْجَبَها حُسْنُهُ، فأرْسلَتْ خادِمَتَها وأمرَتْها أنْ تأتِيَها به، فانْطلَقَتِ الجاريةُ إلى الغُلامِ وأمرَتْهُ أنْ يَتْبَعَها إلى مَوْلاتِها، فظَلَّ نهارَهُ عنْدَها في أرْغَدِ عيْشٍ، فلمَّا كانَ المَساءُ أجازَتْهُ بخَمْسِمائةِ دِرْهَمٍ، فخرَجَ وكتَبَ على بابِ المدينةِ جَمالُ يوْمٍ واحدٍ يُساوِي خَمْسَمائةِ دِرْهَمٍ، وأتى بالدَّراهِمِ إلى أصْحابهِ، فلمَّا أصْبَحُوا في اليوْمِ الثَّالثِ قالوا لابْنِ التّاجرِ: انْطلِقْ أنتَ فاطْلُبْ لنا بعَقْلِكَ وتجارَتِكَ لِيَوْمِنا هذا شيْئاً، فانْطلَقَ ابْنُ التّاجرِ فلمْ يزَلْ حتى بَصُرَ بِسفينَةٍ منْ سُفُنِ البَحْرِ كثيرَةِ المَتاعِ قدْ قَدِمَتْ إلى السَّاحلِ فخرَجَ إلَيْها جَماعةٌ منَ التُّجَّارِ يُريدُونَ أنْ يَبْتاعوا ممَّا فيها منَ المَتاعِ، فجلَسُوا يتَشاوَرون في ناحِيةٍ منَ المَرْكَبِ. وقال بعضُهمْ لبَعْضٍ: ارْجِعُوا يوْمَنا هذا لا نَشتري منهُمْ شيئاً حتى يَكسُدَ المَتاعُ عليْهِمْ فيُرَخِّصُوهُ علينا معَ أنّنا مُحْتاجُونَ إلَيْهِ وسيَرْخُصُ.

(١) الفرسخ: ثلاثة أميال.

(٢) الطن: حزمة القصب ونحوه الواحدة طنة.

(٣) نوبته: دَوْرُه.

فخالفَ ابْنُ التّاجِرِ الطّريقَ وجاءَ إلى أصْحابِ المَرْكَبِ فابتاعَ منهمْ ما فيهِ بمائةِ دِينارٍ نَسِيئةً[١] وأظْهَرَ أنهُ يُريدُ أنْ يَنْقُلَ مَتاعَهُ إلى مَدينةٍ أخرَى. فلمَّا سَمِعَ التُّجّارُ ذلكَ خافُوا أن يَذْهَبَ ذلكَ المَتاعُ منْ أيْدِيهمْ فأرْبَحُوهُ على ما ٱشْتَرَاهُ ألْفَ دِرْهَمٍ وأحالَ عليهمْ أصْحابَ المَرْكَبِ بالْباقِي وحَمَلَ رِبْحَهُ إلى أصْحابهِ وكتبَ على بابِ المدينةِ عَقْلُ يوْمٍ واحدٍ ثمنُهُ ألْفُ دِرْهمٍ. فلمَّا كانَ اليوْمُ الرَّابعُ قالوا لابنِ الملكِ: انْطلِقْ أنتَ واكْتسِبْ لنا بقَضائكَ وقَدَرِكَ، فانْطلَقَ ابْنُ الملكِ حتى أتَى بابَ المدينةِ فجلَسَ على دَكَّةٍ[٢] في بابِ المدينةِ.

واتَّفَقَ أنَّ ملِكَ تلْكَ النّاحيةِ ماتَ ولمْ يُخلِّفْ ولَداً ولا أحَداً ذا قَرَابةٍ. فَمرُّوا عليهِ بجِنارَةِ الملكِ ولمْ يُحْزِنْهُ وكلهمْ يَحْزَنُونَ، فأنكَرُوا حالَهُ وشتَمهُ البَوَّابُ وقال لهُ: مَنْ أنتَ يا لئِيمُ؟ وما يُجْلِسُكَ على بابِ المدينةِ، ولا نَراكَ تَحْزَنُ لموْتِ الملكِ؟ وطرَدَهُ البوَّابُ عنِ الْبابِ، فلمَّا ذَهَبُوا عادَ الغُلامُ فجلَسَ مكانَهُ، فلمَّا دَفَنُوا الملكَ ورَجَعُوا بَصُرَ بهِ البوَّابُ فغَضِبَ وقال لهُ: ألَمْ أنْهَكَ عنِ الجُلوسِ في هذا الموْضِعِ وأخَذَهُ فحبَسَهُ، فلمَّا كانَ منَ الغَدِ وقدِ اجْتمعَ أهْلُ تلكَ المدينةِ يتَشاوَرُونَ في مَنْ يُملِّكونهُ عليْهِمْ، وكلٌّ منْهُمْ يَتطاوَلُ أنْ يكونَ صاحبَ الأمْرِ ويَخْتَلِفُونَ فِيما بينهمْ.

فقالَ لهمُ البوَّابُ: إني رأيْتُ أمْسِ غُلاماً جالساً على الْبابِ ولمْ أرَهُ يَحْزَنُ لحُزْنِنا، فكلَّمْتُهُ فلمْ يُجِبْني فطَرَدْتُهُ عنِ البابِ فلمَّا عُدْتُ رأيتُهُ جالِساً فأدْخَلْتُه السِّجْنَ مَخافةَ أنْ يكونُ عيْناً. فبَعَثَتْ أشْرافُ المدينةِ إلى الغُلامِ فجاؤُوا بهِ وسألُوهُ عنْ حالهِ وما أقْدَمَهُ إلى مَدينتِهمْ. فقالَ: أنا ابْنُ ملكِ فُوبرانَ، وإنهُ لمَّا ماتَ والدِي غلَبَني أخِي على المُلْكِ فهَرَبْتُ منْ يدِهِ حَذَراً

---

(١) النسيئة: البيع لأجل: أي تسليم المبيع حالاً وتأجيل دفع الثمن.

(٢) الدَّكَّة: المصطبة.

على نفْسِي حتى انتَهَيْتُ إلى هذهِ الغابةِ، فلمَّا ذكَرَ الغُلامُ ما ذَكَرَ منْ أمرِه عرَفَهُ مَنْ كانَ يَغْشَى[1] أرْضَ أبيهِ منهُمْ وأثنَوْا على أبيهِ خَيْراً، ثمَّ إنَّ الأشْرَافَ اخْتارُوا الغُلامَ أنْ يُملِّكوهُ عليهمْ ورَضُوا بهِ، وكانَ لأهلِ تلْكَ المدينةِ سُنّةٌ إذا مَلَّكُوا عليهِمْ ملِكاً حَمَلُوهُ على فيل أبْيَضَ وطافُوا بهِ حَوَالَي المدينةِ، فلمَّا فعَلُوا بهِ ذلكَ مَرَّ ببابِ المدينةِ فرَأى الكتابةَ على الْبابِ فأمَرَ أنْ يُكتَبَ: إنّ الاجْتِهادَ والجَمالَ والعقْلَ وما أصابَ الإنسانِ في الدُّنْيا منْ خيْرٍ أوْ شرٍّ إنما هوَ بقَضاءٍ وقَدَرٍ منَ الله عزَّ وجَلَّ، وقد اعتُبِرَ ذلكَ بما ساقَ الله إليَّ منَ الكَرامةِ والخيْرِ، ثمَّ انْطلَقَ إلى مَجْلِسهِ على سَرِيرِ مُلْكهِ وأرْسَلَ إلى أصْحابهِ الذين كانَ معَهمْ فأحضَرَهمْ فأشْركَ صاحبَ العقْلِ معَ الوُزراءِ. وضمَّ صاحبَ الاجْتهادِ إلى أصْحابِ الزرْعِ وأمَرَ لصاحبِ الجَمالِ بمالٍ كثيرٍ ثمَّ نَفاهُ كَيْلاَ يَفْتِنَ النّساءَ.

ثمَّ جَمَعَ عُلماءَ أرْضهِ وذَوِي الرَّأيِ منهمْ وقالَ لهمْ: أمَّا أصْحابي فقدْ تَيقَّنُوا أنَّ الذي رَزَقَهُمْ الله سُبْحانهُ وتعالى منَ الخَيرِ إنّما هوَ بقضاءٍ وقَدَرٍ، وإنّما أُحِبُّ أنْ تَعْلَمُوا ذلكَ وتَسْتَيْقِنُوهُ فإنَّ الذي منَحَني الله وهيَّأهُ لي إنّما كانَ بقَدَرٍ ولمْ يكنْ بجَمالٍ ولا عَقْلٍ ولا اجْتِهادٍ، وما كنْتُ أرْجُو إذْ طرَدَني أخي أنْ يُصِيبَني ما يُعيِّشُني من القُوتِ فضْلاً عنْ أنْ أُصيبَ هذهِ المنزِلةَ، وما كنتُ أُؤَمِّلُ أنْ أكونَ بها لأني قدْ رأيتُ في هذهِ الأرْضِ مَنْ هوَ أفضَلُ منِّي حُسْناً وجَمالاً وأشدُّ اجْتِهاداً وأحَزَمُ رأياً فساقَني القَضاءُ إلى أنِ اعتزَزْتُ بقدَرٍ منَ الله، وكانَ في ذلكَ الجَمْعِ شيْخٌ فنَهَضَ حتى اسْتَوَى قائماً وقالَ: إنّكَ قدْ تكلَّمْتَ بكلامِ عقْلٍ وحكْمةٍ، ولكنَّ الذي بَلَغَ بكَ ذلكَ وُفُورُ عقْلِكَ وحُسْنُ ظنِّكَ، وقدْ حَقَّقْتَ ظنَّناً بكَ ورَجاءَنا لكَ وقدْ عرَفْنا ما ذَكَرْتَ وصدَّقْناكَ فيما وَصَفْتَ، والذي ساقَ الله إلَيْكَ منَ المُلْكِ والكرامةِ كنْتَ

(١) يغشى: يأتي.

أَهْلاً لهُ لِمَا قَسَمَ الله تعالى لكَ منَ العقْلِ والرَّأيِ.

[حكاية السائح والهدهدين وما كافأه به]

«وإنّ أسْعَدَ النَّاسِ في الدُّنْيا والآخرَةِ مَنْ رَزَقَهُ الله رأياً وعقْلاً، وقدْ أحسَنَ الله إلَيْنا إذْ وفَّقَكَ لنا عنْدَ موْتِ ملِكِنا وكَرَّمَنا بكَ، ثمَّ قامَ شيخٌ آخَرُ سائحٌ فحمِدَ الله عزَّ وجلَّ وأثْنى عليه وقالَ: إني كنْتُ أخْدُمُ وأنا غُلامٌ قبْلَ أنْ أكونَ سائحاً رجُلاً منْ أشْرَافِ النَّاسِ، فلمَّا بدَا لي رَفْضُ الدُّنْيا فارَقْتُ ذلكَ الرَّجلَ وقدْ كانَ أعْطاني من أجْرَتي دِينارَيْنِ فأردْتُ أنْ أتصدَّقَ بأحدِهما واستَبْقيَ الآخرَ فأتيْتُ السُّوقَ فوَجدْتُ معَ رجُلٍ منَ الصَّيَّادِينَ زوْجَ هُدْهُدٍ فساوَمْتُ فيهما فأبَى الصَّيادُ أنْ يَبيعَهُما إلاّ بدِينارَيْنِ فاجتَهَدْتُ أنْ يَبيعَنِيهِما بدِينارٍ واحدٍ فأبَى. فقلْتُ في نفسِي: أشتَرِي أحدَهُما واتْرُكُ الآخرَ، ثمَّ فَكَّرْتُ وقلْتُ لعلَّهُما يكونانِ زوْجَيْنِ ذَكَراً وأنْثَى فأفرِّقَ بينهُما، فأدْرَكَتني لهُما رحمة فتوَكَّلْتُ على الله وابْتعتُهُما بدِينارَيْنِ وأشفَقْتُ[1] إنْ أرْسَلْتُهُما في أرْضٍ عامِرَةٍ أنْ يُصادَا ولا يَسْتَطِيعَا أنْ يَطيرَا ممَّا لَقَيَا منَ الجُوعِ والهُزالِ ولمْ آمَنْ عليْهِما الآفاتِ فانْطلَقْتُ بهما إلى مكانٍ كثيرِ المَرْعَى والأشْجَارِ بَعيدٍ عنِ النَّاسِ والعُمْرانِ فأرْسلْتُهُما فَطارَا ووَقَعا على شجَرَةٍ مُثْمِرَة، فلمَّا صارَا في أغْلاها شَكَرا إليَّ وسَمِعْتُ أحدَهُما يقُولُ للآخَرِ: لقدْ خلَّصَنا هذا السَّائحُ منَ البَلاءِ الذي كنَّا فيهِ واسْتَنْقذَنا ونجَّانا منَ الهلَكةِ وإنّنا لَخَليقانِ[2] أنْ نُكافِئَهُ بفِعْلهِ، وإنَّ في أصْلِ هذهِ الشَّجرَةِ جَرَّةً مَمْلوءَةً دَنانيرَ أفلاَ ندُلُّهُ عليْها فيأخُذَها.

فقلْتُ لهما: كيْفَ تَدُلاَّنِني على كَنْزٍ لمْ تَرَهُ العُيونُ وأنتُما لمْ تُبْصِرَا الشَّبكةَ؟ فقالاَ: إنَّ القَضاءَ إذا نزَلَ صَرَفَ العُيونَ عن مَوْضِعِ الشيءِ وغَشَّى

(١) أشفقت: خشيت.

(٢) لخليقان: لجديران.

على البَصَرِ، وإنما صَرَفَ القَضَاءُ أعْيُنَنا عنِ الشَّرَكِ ولمْ يَصْرِفْها عنْ هذا الكَنْزِ لتَنْتفِعَ أنتَ بهِ، فاحتَفَرْتُ واستَخْرَجْتُ البَرْنِيّة[1] وهيَ مَمْلُوءَةٌ دَنانيرَ فدَعَوْتُ لهُما بالْعافيةِ وقلتُ لهما: الحَمدُ لله الذي عَلّمكُما ممَّا رَأى وأنْتُما تَطيرَانِ في السَّماءِ وأخبَرْتُماني بما تحْتَ الأرْضِ. فقالاَ لي: أيُّها الْعاقلُ! أمَا تَعْلَمُ أنَّ القَدَرَ غالبٌ على كلِّ شيءٍ لاَ يَسْتَطِيعُ أحدٌ أنْ يَتَجاوزَهُ. وأنا أُخْبِرُ الملِكَ بذلكَ الذي رَأيتُهُ، فإنْ أمَرَ الملِكُ أتيتُهُ بالمالِ فأوْدَعْتُهُ خَزَائنَهُ... فقالَ الملِكُ: ذلكَ لكَ ومُوَفَّرٌ عليكَ.

(١) البرنية: فخارة ضخمة خضراء.